التثليث والتوحيد

محاضرة للبابا شنوده الثالث
ألقيت في الكاتدرائية المرقسية في مصر

الطبعة الثالثة ٢٠٠٣
Third Printing 2003

Voice of Preaching the Gospel
PO Box 15013, Colorado Springs, CO 80935

إن مشكلة الذين يحاربون التثليث أنهم يفصلونه عن التوحيد، ويظنون أن التثليث المسيحي لون من الشرك أو تعدد الآلهة، ولكننا كمسيحيين نقول إننا نؤمن بإله واحد لا شريك له ولا نؤمن إطلاقاً بثلاثة آلهة. وكل الاتهامات التي توجَّه إلى الإيمان بثلاثة آلهة لا علاقة لها بالمسيحية إطلاقا. فالمسيحيون يؤمنون بإله واحد لا غيره، بل يرون أن الإيمان بأكثر من إله أمر يتنزه عنه حتى الشيطان: "أنت تؤمن أن الله واحد. حسناً تفعل. والشياطين أيضاً يؤمنون ويقشعرّون" (يعقوب ٢: ١٩). فالشياطين في أعماقهم يؤمنون بإله واحد. وإن كانوا ينشرون تعدد الآلهة بين الناس أو ينشرون الشرك بين الناس، فهم بهذا إنما يهزأون بعقول الناس ولكنهم في داخلهم يؤمنون بإله واحد ويعرفون أنه لا يوجد غيره.

ومن آيات العهد الجديد التي تبين الإيمان المسيحي بإله واحد ما قاله السيد المسيح حينما أرسل تلاميذه للتبشير: "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩). قال (باسم)

ولم يقل (بأسماء). وهذا الأمر وضحه يوحنا الرسول في رسالته الأولى "فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد" (١يوحنا ٥:٧). وقانون الإيمان المسيحي الذي يؤمن به جميع المسيحيين يبدأ بالآتي: "بالحقيقة نؤمن بإله واحد".

فنحن نؤمن بإله واحد ليس أكثر، ونعتبر أن من يشرك بالله – أي يجعل لله شريكاً – هو إنسان كافر. ومن يؤمن بأكثر من إله أو بثلاثة آلهة هو أيضاً إنسان كافر.

المشكلة كلها، كيف أن الله الذي نؤمن به جميعاً واحد في ثلاثة؟ وما معنى كلمة ابن؟ وما معنى كلمة روح قدس؟ وهل هذا يتنافى مع وحدانية الله؟ فلنبدأ المناقشة في التثليث والتوحيد بأسلوب هادئ أسمى من الغضب والتجريح لأن إخوتنا المسلمون يقول لهم القرآن.

في سورة العنكبوت ٤٦ "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي

أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون".

وفي سورة آل عمران ١١٢: ".. من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر".

وفي سورة المائدة ٨١: "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا وأكثرهم مودة الذين قالوا إنّا نصارى ذلك لأن منهم قسيسين ورهباناً وهم لا يتكبّرون".

وهنا عرض الثلاث طوائف: اليهود، والذين أشركوا، والنصارى.

وفي سورة البقرة ٦١: "إن الذين آمنوا والذين هادوا (أي اليهود) والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر. وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

وفي سورة الحج ١٦: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد".

واضح من الآية السابقة، الفصل بين المسيحيين

والمشركين. كذلك فرّق الإسلام بين المسيحيين والمشركين، فحرّم على المسلمين الزواج من المشركات ولم يحرّم عليهم الزواج من المسيحيات. كذلك أهدر دم المشركين ولم يهدر دم المسيحيين، إذ فرض عليهم الجزية.

النصارى قوم يعرفون الله ولا يشركون به أحد، ونحن نؤمن بذلك حتى منطقياً.. فإذا كان لله شريكاً فلا يكون قادراً على كل شيء. لأنه إذا كان قادراً على كل شيء فهو قادر على الكل بما فيه هذا الإله الآخر. وكذلك الله خالق الكل، إذا كان هناك إله آخر، فهل ربنا خلقه أولاً؟ وإذا خلقه أولاً، فالإله الآخر ليس بإله لأنه ليس قادراً على الخلق إذن.

نحن نؤمن بإله واحد قادر على كل شيء، والكل خاضع لسلطانه، ولا يوجد شيء في الوجود غير خاضع لسلطان الإله الواحد هذا.

ثالوث في واحد وواحد في ثالوث

سؤال: توجد في سورة المائدة آية توصم المؤمنين بالثالوث الأقدس بالكفر. فما ردّ قداستكم؟

الإجابة: في سورة المائدة ٧٢: "لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد" .. نحن لا نؤمن بأن الله ثالث ثلاثة، ونحن لا نقول ذلك كما في سورة المائدة.. نحن نقول إن الله واحد ونحارب من يقول إن الله ثالث ثلاثة. ومن أحسن التشبيهات التي أسوقها للثالوث والوحدانية الإنسان نفسه. فهو خُلق على صورة الله، وهو ذات إنسانية واحدة لها عقل ولها روح. الذات والعقل والروح يكوّنون إنساناً واحد وهم ذات إنسانية واحدة. وكذلك الآب والابن والروح القدس ذاتٌ واحدة، ولا يستطيع أحد أن يقول إن الله ليس له عقل أو ليس له روح. الله بعقله وروحه الله واحد وليس ثالث ثلاثة. تماماً عندما نقول إن النار يتولّد منها حرارة وينبعث منها نور. فالنار بنورها وحرارتها شيء واحد. وما يُقال عن النار يُقال عن الشمس.

الله ذات إلهية عاقلة حية فيها العقل والحياة

والذات، والعقل والحياة كائن واحد لا نفصل بينهما – الآب في الابن في الروح القدس، وما نقوله على هذه الذات الإلهية العاقلة الحية أنها الثالوث الأقدس، فهذا من باب التفاصيل وليس من باب الفصل.

عقل الله (اللوغوس)

واضح أن الروح القدس هو روح الله ولا مشكلة في ذلك.. أما الكلمة (اللوغوس) فكيف هو عقل الله؟

العقل – ويسمى أيضاً الكلمة – وكلاهما أحد معاني الأصل اليوناني (Logos). ففي الأصل اليوناني لإنجيل القديس يوحنا نقرأ، "في البدء كان الـ (Logos).. والـ (Logos) كان عند الله.. وكان الله الـ (Logos) (يوحنا ١:١). وكلمة (Logos) لها في القاموس معان كثيرة: أحدها (Logo) باليوناني ومنها كلمة (Logic) بالإنجليزية، ومعناها المنطق وليس النطق (Pronounce) أو الكلام العادي، أي إنها المنطق أو العقل المنطوق به أو النطق العاقل.

الله خلق العالم. بعقله خلق العالم، أو بابنه، أو منطقه، أو بحكمته بمعنى واحد، والله وعقله كائن واحد. مثال على ذلك، عندما تقول أنا حللت المسألة بعقلي، فهل أنت الذي حللتها أم عقلك الذي حلّها؟ وأنت وعقلك شيء واحد. هذا التمييز بينك وبين عقلك فكريٌّ فقط ولا يعني الانفصال. كذلك نحن، لا نفصل بين الآب والابن، إنما نقول آب وابن من جهة التفاصيل وليس من جهة الفصل. لأنه لو كان الله بدون عقل لما كان إله، أو أن الله بدون روح لما كان إله، إذن فلا بد أن يكون الله وعقله وروحه والثلاثة واحد.

الآب والابن

نحن نؤمن بإله واحد، ونؤمن بالله الآب، فما هي حكاية الابن إذن؟

الابن بنوته ليست جسدية، وليست بنوة تناسلية، وليست بنوّة من صاحبة. إنما هي من نوع آخر، من البنوّة الذاتية العقلية الروحانية التي لا علاقة لها بالجسد

والتناسل. مثال ذلك، عندما نقول إن العقل يلد الأفكار. صحيح العقل يلد الفكر ولكن هل هذه الولادة تناسلية؟ طبعاً لا. مثلما يولد الفكر من العقل هكذا ولادة المسيح الابن من الآب.. في الولادة الجسدية يوجد انفصال ولكن الولادة من الثالوث الأقدس لا يوجد فيها انفصال. وكما يقول المسيح في إنجيل يوحنا: "أنا والآب واحد" (يوحنا ١٠:٣٠)، الابن يخرج من الآب دون أن ينفصل عنه، يخرج منه ويظل فيه. وهنا تسأل كيف؟ ها أنا أفّهمك بهذا المثال:

عندما أنت تفكر وتخرج فكرة من عقلك، وتصل لآذان الناس والفكرة لا تزال في عقلك. الفكرة ممكن أن تخرج من عقلك وتدخل في كتاب، ويوزّع في أمريكا، ويقرأه كل الناس هناك. عندها تكون الفكرة قد خرجت منك ولكنها لا تزال فيك.

وكلمة "ابن" يجب أن نفهمها على معان كثيرة.. كلمة "ابن" نقولها منسوبة للزمان والمكان، فنقول مثلاً: فلان ذهب إلى الجيش وهو ابن عشرين سنة (زمان). ونقول

أبناء النيل — أولاد بلدنا (مكان).. وكلمة البنوة تُطلق حتى في النواحي العقلية، فنحن نقول العقل يلد فكرة. ونقول: فلان لم ينطق ببنت شفة.. وتوجد البنوة الروحية بين المدرّس وتلاميذه عندما يناديهم، أبنائي الطلبة. ونقول في علم الطبيعة إنّ الحرارة تتولّد من الاحتكاك.. وفي الإنجيل يقول القديس يوحنا الحبيب: "يا أولادي، أكتب إليكم هذا لكي لا تخطئوا".

الابن سُمّي أيضاً الحكمة في أمثال سليمان، في العهد القديم (قبل تجسُّد المسيح). وهو العقل والمعرفة. وقال الكتاب: "المذّخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم". فنحن عندما نقول إنّ الآب خلق العالم بالابن يعني خلق العالم بعقله وحكمته، بفكره ومعرفته.. فالآب خَلَق والابن خَلَق وهما الاثنان واحداً.

التثليث الوثني

التثليث الذي يحاربه الإسلام ليس هو التثليث المسيحي، هذا واضح في قول القرآن في سورة الإنعام (١٠٠): "بديع

السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم". هذا شيء يحاربه الإسلام وأيضاً نحاربه نحن المسيحيين.

ومن يقول إن الله له ولد من صاحبة فهو كافر في الشرع الإسلامي والمسيحي أيضاً.. التثليث الذي يحاربه الإسلام والمسيحية هو التثليث "الوثني" مثل الديانة الفرعونية التي فيها إيزيس وأوزوريس وابنهما حورس. هذا الثالوث الذي حاربته المسيحية قبل الإسلام. ولكن الإسلام اتهم المسيحيين الذين يعرّفون الثالوث المسيحي بأنه: الله، والمسيح، والعذراء. إذ قال في سورة المائدة: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ قال حاشا". نحن أيضاً نقول حاشا. ولا نؤمن بثالوث الله والمسيح والعذراء.. بل ونحاربه مع المسلمين ولا ننادي بتأليه العذراء. فمن ألّه العذراء فهو إنسان كافر.

الأقانيم الثلاثة في التثليث المسيحي متساوية في كل شيء. فالآب يساوي الابن ويساوي الروح القدس.. لا

يوجد فارق أو انفصال. والأقانيم متساوية في الأزلية، وهنا يبدو الفرق واضحاً بين الثالوث المسيحي والثالوث الوثني.

في التثليث الوثني، الثلاثة: إيزيس وأوزوريس وحورس ليسوا واحداً بعكس الثالوث المسيحي الذي يقول الآب والابن والروح القدس واحد.

التثليث الوثني فيه تناسل، وهذا غير موجود في التثليث المسيحي.

التثليث الوثني مختلف في الزمن. أي عندما كان أوزوريس موجوداً لوحده وكانت إيزيس لوحدها قبل زواجهما. وبعد الزواج وجد حورس وكان عمره أقل منهما طبعاً.. أما في المسيحية فلا يوجد فارق زمني بين الأقانيم الثلاثة لأن الله موجود منذ الأزل، وفيه عقله (الابن)، وروحه (الروح القدس).

فكرة الثالوث المسيحي ليست بنت اليوم أو أمس، ولا هي أيضاً بنت المسيحية، فهي موجودة منذ دهر الدهور.

التثليث المسيحي والهرطقات

في بدعة "آريوس"، عندما قال إنّ الابن مخلوق، لم يكن يفهم الثالوث الأقدس لأنه لو كان يفهم أنّ الابن هو عقل الله فلا يمكن أن يخلق الله لنفسه عقلاً لأنّ هذا المخلوق معناه أنه لم يكن موجوداً قبل خلقه. وحاشا لله أنه كان بدون عقل في أي لحظة.. إذن لا يمكن أن يكون الابن مخلوقاً. الله عقله موجود منذ الأزل. صحيح، إن التجسد كان له وقت، ولكن الابن كان موجوداً قبل التجسُّد.

بالنسبة للروح القدس، الذين قالوا إن الروح القدس مخلوق لم يفهموا الثالوث الأقدس. لأنه كيف يكون الله حياً قبل خلق هذه الروح؟ إذن الله موجود بعقله وروحه منذ الأزل، ويمكن بالتالي إطلاق كلمة "الله" على كل أقنوم من الأقانيم الثلاثة فنقول: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس.

في الفلسفات الأفلاطونية الحديثة، اعتقد مؤسسوها أنّ الله غير ممكن أن يكون بينه وبين المادي اتصال مباشر،

لأجل ذلك خلق إلهاً متوسّطاً له اتصال بالمادة، وهذا الإله الوسيط يتوسّط بين الذات الإلهية "الله"، وبين المادة (الإنسان). وردُّ المسيحية على هذه الفلسفات هو إننا لا نرى في خلق الله أي نقص أبداً، وفي حالة وجود الإله المخلوق (الوسيط) فهو لا يمكن أن يحمل المعنى المطلق لكلمة (إله)، ذلك لأنه مر وقت لم يكن فيه هذا الإله موجوداً.. من هنا يمكن الاستغناء عنه لأنّ الكون كان موجوداً ومسيّراً بغيره.. إذن الآب والابن (الإله المتجسد) شيء واحد.

الله هو الروح، وهو الحكمة أو العقل، وهو الذات الإلهية لذلك نحن نتكلم عن لاهوت الابن والروح القدس والآب والكل لاهوت واحد. ولا فرق بين أقنوم وآخر.